الفصل الأول

امرؤ القيس ..

دراما الشاعر الضلِّيل

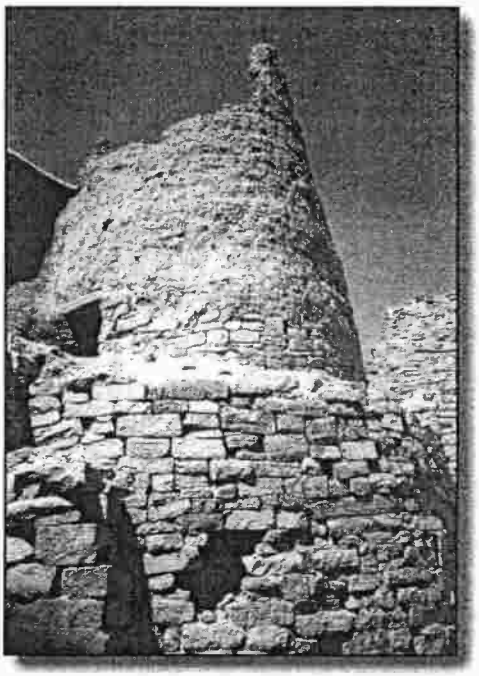

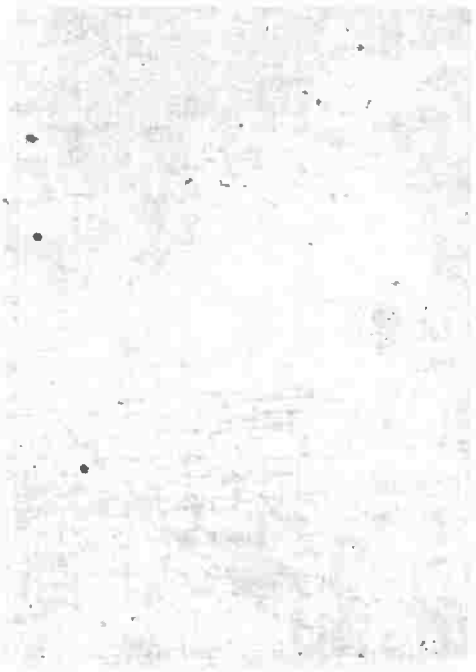

من أين أتت الرياح بامرئ القيس إلى هنا، فى دومة الجندل وتيماء؟! من الحيرة حيث موطن كندة الأول وقبيلة كلب..؟ أو من جلاجل المتاخمة للرياض الآن والتى ذكرها فى معلقته الشهيرة:

ألا رُبَّ يوم لكَ منهنَّ صالحٍ ولاسيما يومٌ بدارةِ جلجلِ

.. وأىّ ريح ألقت به فى متاهة الترحال بعدما طرده أبوه حجر بن الحارث ابن عمرو بن مرتع الكندى، ليطلب الصيد والغزل والندامى والليالى التى لا ينتهى فيها وصال..؟!

هل هى حماقة الشعراء حين وقف فى طريق عُنيزة أو (فاطمة) ابنة عمه شرحبيل وظل يطاردها بغزلياته الفاضحة، أو كما ذهب بعض رواة العرب من أنه انتظر خروج الحى ليتخلف عن الرجال ويسبق النساء إلى غدير دارة جلجل ويستخفى، حتى إذا وردت العذارى وفيهن عنيزة «أو فاطمة» ونضون ثيابهن

وشرعن فى الانغماس فى الماء ظهر ليجمع الثياب ويجلس عليها ثم حلف ألاّ يدفع إليهن الثياب إلا بعد أن يخرجن إليه «على حالهن» فلما رفضن أبى إلا إبرار القَسَم لتخرج أوقحهن فيدفع إليها بثيابها ويتتابعن إلا عنيزة التى أقسمت عليه، ليقول لها: يا ابنة الكرام لابد أن تفعلى مثل ما فعلن، فتخرج إليه ويشبع عينيه منها مقبلة ومدبرة، ولا ينسى ذبح راحلته لهن ليُطعمن، ولا ركوة الخمر ليُسقين، حتى إذا كان طريق العودة ألح على عنيزة أن تحمله على مقدم هودجها فوافقت فكان يدخل رأسه ويخرجها وهو بين لثمّ وشمْ:

ويـومَ دخلتُ الخِدْرَ خدر عُنيزة فقالت لك الويلاتُ إنك مُرْجِلى

.. أكانت تلك الحماقة سبباً فى طرده من الحى أو مقتل أبيه على يد بنى أسد وبنـى كاهل ليقول سـاعتها «ضيّعنى صغيراً وحمّلنى ثـأره كبيراً، لا صحو اليوم، ولا سُكر غداً، اليوم خمرٌ وغداً أمرُ» وأصبح لقبه المقصور (أى الذى اقتصر على ملك أبيه) وكُنى أبو وهب كما قيل له الملك الضليل وذى القروح.

.... ربمـا كان طلب الثأر وطراده همـا ما أوصلاه إلى دومة الجندل التابعة الآن لمنطقة الجوف شمال السـعودية والتى يحدها من الشـمال والشـمال الشرقى إمارة الحدود الشمالية ومن الشمال الغربى إمارة القرّيات التى كانت ضمن إمارة الغرب، ومن الغرب ومن الجنوب والجنوب الشرقى إمارة تبوك.

كانـت تلـك المنطقة منـذ قديم، أهم معـبر للجزيـرة العربية يربطهـا بنطاق ممتلكات الإمبراطوريات العريقة فى بلاد الشـام والعراق وفارس وما تقوم عليه تلك الإمبراطوريات من حضارات تضرب جذورها فى أعماق التاريخ.

... قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان: إن اسمها مستمد من اسم دوماء ابن النبى إسماعيل عليه السلام وأنه لما كثر أبناء إسماعيل فى تهامة على البحر الأحمر غادرها دوماء إلى أن وصل إلى الموقع الحالى لدومة الجندل حيث ابتنى لنفسه قلعة سميت باسمه (قلعة دومة الجندل) أما عن إضافة كلمة الجندل فيقول الحموى: إن السبب هو بناء القلعة من الجندل أى من الصخر.

فى روايات أخرى مشـابهة اشـتق بعض المؤرخين العرب اسـم «دومة» من دوم وتكتـب أحيانـاً: دومان فيما يقول المستشـرق «إلواس موسـيل» فى كتابه «شمال الحجاز» أن «جندل» كان اسـم قبيلة بدوية قديمة سـكنت دومة وكان يطلق عليها الجنـدل أو بنى جندل «وذكر ذلك أيضاً الشـيخ عبدالرحمن السـديرى فى كتابه «الجوف – وادى النفاخ».

.. والمصادر الرومانية والبيزنطية أشـارت إلى دومة بأسماء مختلفة مثل دوماتا، دوميثا أو دوماثا لكنها لم تعط تفسيراً لدلالة الاسم بينما تتحدث النصوص الآشورية عن دومة الجندل كعاصمة لعدد من الملكات العربيات منهن زبيبة وسمسـى وأياتى

وتلخونو التى تصفها تلك النصوص بأنها كانت كاهنة الآلهة «دلبات» وكان الناس فى الدومة يعبدونها ويلقبونها بـ «اثار ســامين» (وكانت تعرف باســم «عشتار» فى بلدان أخرى).

ويشــير التاريخ إلى دومــة الجندل فى القــرن الثالث الميلادى فــى عهد الملكة العربية الشــهيرة «زنوبيا» التى حكمت تدمر بين سنتى ٢٦٧ - ٢٧٢م ويقال: إن هــذه الملكة غزت المدينة لكن قلعتها كانــت حصينة حيث لم تتمكن من اقتحامها فارتدت خائبة وقالت قولتها الشــهيرة «تمرد مارد وعز الأبلق» ومارد هذا هو قصر مارد (القلعة) فى الدومة بينما قصر الأبلق المشــهور فى تيماء وفى هذا ما يدل على أن المكان واحد وإن اتسع.

ولكــن الديار عَفَــت وَدَرس «محلها فمقامها» - على حــد تعبير لبيد بن ربيعة - ولم يبــق من المــكان إلا رائحة التاريخ.. وإلا الطريق إلى امــرئ القيس.. الطريق الذى بليت عليه من قبل نعال الشعراء والغاوين..

... ما الذى حدث هنا..؟!

وما الذى حول الملك الضليل من عاشــق يلهث وراء الزق والحسان إلى مُغيرٍ على قبائل شمالى الحجاز ليبسط سلطانه عليها..

أتراه الطُراد الأول الذى حوله إلى عاشــق للصولجان قدر عشقه للملاح، أو تراها دراميــة الحياة ذاتها التى عاشــها أو أنه أراد أن يثبت ملكاً لنفســه ولحفَدته من بعده..؟!

لا شــيءَ قطعــاً، ولا أثر يدل على ما حدث خاصــة وأن أخباره وهو ابن حجر الكندى قد اختلطت فى ذاكرة العرب بأخبار امرئ القيس اللخمى وبينهما فى ذلك اختلاف واسع.

كانت منازل قومه بنى أســد، وفى رواية أخرى: قُرب تيماء فى شمال الحجاز وذكر ذلك فى شعره:

وتيماءَ لم يُتركْ بِها جذعُ نخلةٍ ولا أُجُمــاً إلا مَشيداً بجنــدلِ
كأن ثَبيراً فــى عرانينِ وَبلــهِ كبيرُ أناسٍ فــى بجــادٍ مُزَمّــلِ

كما ذكر حامر وهو موضع فى ديار غطفان عند أرَل من شَـرْبة (وهما موضعان)، وديـار غطفان بقرب تيماء إلى الجنوب منهـا و «أبَان»: جبل يقال: إنه قريب من وادى الرمة الذى ينحدر من مرتفعات المدينة المنورة صوب القصيم وهو أعظم أودية نجد ففى الشـمال وادى الرمة وفى الجنوب وادى الرشاء وكلها بنجد وأعالى وادى الرمة بالحجاز.

وذهب الباحث السـعودى حمود ضاوى القثامى فى كتابه «الحجاز» إلى أن امرأ القيس أدرك تيماء قريباً من «قَطَنا» وهو بئر ماء بناحية «فيد» جنوب تيماء كما أن «قَطَنا» أيضاً جبل من أرض الشرق:

على قَطَنـا بالشَّـبم أيمنَ صـوبـهِ وأيسـره على السـتار فيذبـلِ
فأضحى يَسُحُّ المـاءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ يَكُبُّ على الأذقانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ

والسِّتار جبل بأجا فى الشرق من تيماء، فهو يذكر أن المطر بعد مروره على تيماء اتجه إلى الشرق، فأيمنه بوادى الرمة جنوباً وأيسره بنواحى حائل شمالاً شرقياً.

تيماء إذن كانت إحدى الحواضر التى تثير مطامع القادمين مع الريح أمثال الملك الضليل الباحث عن مُلْكٍ وسلطان..!!

زارها الشـيخ حمد الجاسـر(*) وكتب أن مؤرخى العرب يذكرون أن أول من نزل تيماء هم العمالقة الذين يشـاهدون لها آثاراً قوية فكان اليمامةُ القدماء عندهم طسـم وجديس من العمالقة وسـكان المدينة بنوهـف وبنو مطر وغيرهم من العمالقة أيضاً، وسـكان مكة قبل أبناء إسماعيل من العمالقة وسكان فلسطين الذين وصفهم الله فى القـرآن الكريم بأنهم قوم جبـارون من العمالقة أيضاً وفراعنـة مصر من العمالقة.. ويظهـر أن العمالقة هى الأمم القوية المجهولة التى خلفت آثاراً عمرانية فى البلاد التى سَـكَنْت، أما محاولة جعلها قبائل ذات أنسـاب متصلة فهى أقرب إلى طرق القصاصين من تحقيقات الباحثين.

وأورد الشـيخ حمد الجاسر ما جاء فى الكتب القديمة فقال: قال صاحب كتاب «الـروض المعطار»: وكانت أمـة من العماليق نزلوا فى قديـم الزمان الحجاز وكان

(*) يلقب بعلامة الجزيرة العربية، باحث سعودى معروف.

ملكهم بتيماء يقال له الأرقم بن أبى الأرقم فسكنوا مكة والمدينة والحجاز وعتوا عتواً كبيراً فلما أظهر الله عز وجل موسى عليه السلام على فرعون وأهله وجنوده ووطئ الشام وأهله بعث بعضاً من بنى إسرائيل إلى الحجاز وأمرهم ألا يستبقوا منهم أحداً بلغ الحُلُم، فلما أظهرهم الله عليهم فقتلوهم حتى انتهوا إلى ملكهم بتيماء الأرقم بن أبى الأرقم فقتلوه وأصابوا ابناً شاباً له فضنوا به عن القتل وقالوا نتركه حتى نقدم به على رسول الله (موسى) فيرى فيه رأيه فأقبلوا به وقبض الله موسى عليه السلام قبل قدوم الجيش، فلما سمع بهم الناس تلقوهم فسألوهم عن أمرهم فأخبروهم بفتح الله عليهم وقالوا: إنا لم نستبق منهم أحداً إلا هذا الفتى لنقدم به على نبى الله موسى فيرى فيه رأيه فقالت لهم بنو إسرائيل إن هذه لمعصية منكم لمَا خالفتم أمر نبيكم، والله لا تدخلوا علينا أبداً، فحالوا بينهم وبين الشام فقال الجيش بعضه لبعض إن منعتم بلدكم فخير منه البلد الذى قدمنا منه، وكانت الحجاز إذ ذاك أشجر بلاد الله تعالى وأظهره ماءً فكان هذا أول سُكنى اليهود الحجاز فكانوا بزهرة بين السافلة والحرة ونزل جمهورهم (معظمهم) بمكان يقال له يثرب بمجمع سيول بطحان والعقيق وسيل قناة مما يلى زغابة.

ونعرف من الوثائق الآرامية القديمة التى عُثر عليها فى تيماء كيف قامت هناك مستعمرة آرامية تجارية حوالى القرن الخامس قبل الميلاد.

ويذكر عادل عياش أن الملك البابلى نابونيد غزا تيماء سنة ٥٥٢ قبل الميلاد فاستولى عليها بعد قتل أميرها وأهلك مواشى المنطقة كلها ثم أقام فى مدينة تيماء وبنى لنفسه قصراً على غرار قصره فى بابل وجمّل المدينة وبنى الأسوار لتحصينها.

وورد اسم تيماء فى جغرافية بطليموس وهو يقصد واحة تيماء وفى التوراة أن واحة تيماء كانت تابعة لقبائل من بنى إسماعيل أو لغيرها من ولد إبراهيم من زوجته قطورة وجاء فى التوراة أن سكان تيماء كانوا يشتغلون بالتجارة وكانت لهم قوافل تجارية.

لا غروَ إذن فى أن يسيل لعاب امرئ القيس المغامر فى الفيافى وجموح الارتحالات والذى أشـارت المصادر التاريخية اليونانية على أنه «امرؤ القيس»: الذى كان من العـرب التابعين لملوك الفرس والذى بسـط سـلطانه على قبائـل شمال الحجاز ثم اسـتولى على جزيرة يوتابه «جزيرة تيران – الآن» الواقعة فى مدخل العقبة وطرد منها عمال المكوس (الضرائب) من الروم.

ولكن التقلبات السياسية السائدة فى عصره جعلته يصانع الروم مخافة غزوهم له فأرسل إلى بيزنطية أسقف العرب الذين خضعوا لحكمه سنة ٤٧٣ للميلاد ليفاوض قيصـر فـى أن يعينه حاكماً على جنوبى الشـام (الأردن حالياً)، وسـاحل خليج العقبة ويمنحه لقب فيلارك (أو فيلارخ) ونجح الأسـقف فى سـفارته ودعا القيصر امرأ القيس لزيارة عاصمته وبالغ فى إكرامه ثم عاد إلى بلاده.

لكن ترجمة الزوزنى «المتوفى عام ١٠٩٣» لسيرة امرئ القيس تذكر أنه بعد أن حمل على بنى أسـد وبنى كاهل وهم قتلة أبيه، حاربه المنذر وألبّ عليه العرب فانهـزم إلى أن وصـل إلى ديوان القيصر، وبعد رحيل المنذر أوغر الحسّـاد صدر القيصـر بأن قالوا لـه: إن امرأ القيس ذكر أن ابنتك عشـقته وأنه كان يواصلها وهو قائل فى ذلك شـعراً يشـهرها بـه فى العرب ويفضحهـا فبعث قيصر إليه حينئـذ بحلة منسـوجة بالذهب أودعها سماً قاتـلاً إلى أن توفى فى بلدة الفترة ودفن هناك».

وذكـر جـواد على أن امرأ القيـس غادر دياره لسـبب لا نعرفه إلى الأرضين الخاضعة لنفوذ الرومان وأخذ يغزو الأعراب حتى هابته القوافل فتوسـع نفوذه وامتد إلى العربية الصخرية واسـتولى على جزيرة «تـادان – TOTABA» وترك رجاله يجبون له الجباية من السـفن القادمة من الهند حتى حصل ثروة كبيرة واتصـل عـام ٤٧٣م بالقسـطنطينية فعينه القيصر «ليون» عامـلاً على الأعراب الخاضعـين لنفوذ الـروم مقابل دخوله فى حلف معهم ثم دخل دين النصرانيين فمنحه القيصر لقب «فيلارخ».

درامـا عريضة عرض صحراء النفود ذات الرمال البيضاء الناعمة، التى تتسـلل ذراتها بسهولة إلى العين، لكنها لا تستطيع حجب الرؤية عن المكان الشاسع الذى كان يوماً فى قبضة امرئ القيس وكان يحرثه بجواده وطموحه الذى تجاوز الحدود وجعله متناقض التحالفات وربما كان لقب «الملك الضليل» لمثل هذا السبب حيث كانت مصالحه هى الأهم وهى التى تجعله يريق الدماء بنفس السهولة التى نحر بها راحلته ليطعم بها صويحبات عنيزة.

سهولة الدم مثل جريان الشعر فى عروقه كانت ميلاً طبيعياً للاتساق فى عقد الملوك، لكن التاريخ لم يذكرأنه قُدِّر لمملكة ذلك الشاعر الضليل الاستمرار وإن حفظ لنا تنقلاته الكثيرة التى بدأها من موضعىّ الدخول وحومل ليستقر ها هنا فى دومة الجندل التى نقف عليها الآن خارج المدينة الحديثة فى القفر المتسع والمتجهة بعض طرقه إلى تيماء تبوك بعدما سالت الأزمنة واختلطت أحداثها بتلك الرمال التى يحتال فيها البَرَد وتنمو الريح وتختفى العفوية الساخنة مع الظهيرة الغافية فى شتاء الشمال الطويل والذى لا يخلو من جبال شواهق تسكن ذؤاباتها أقطان الثلوج وأعشاش الجوارح.

وكأنى بنا فى قلب المعلقة «معلقين» ببهائها الصافى ولغتها العبقرية وهو يشير الآن إلى المكان صائحاً فى وجوهنا الحديثة المتعبة وأرواحنا المنقرضة:

ورُحْنَا يكادُ الطرفُ يقصرُ دونه متى ما تَرَقَّ العينُ فيه تَسَهَّلِ
فباتَ عليهِ سَرْجُةٌ ولِجامُهُ وباتَ بعينى قائماً غير مُرْسَلِ

وكأن فرسه الخالد «المكر المفر المقبل المدبر معاً» يتظاهر فى هواء الأفق وهو يتهادى بأيطلى ظبى وساقى نعامة وإرخاء سرحان وتثريب تتفل، بينما الريح تعوى بخلود وتكنس بعض الرمال عن الأحجار التى ربما لم تتحرك منذ وطأتها حوافر الفرس.. وأحلام امرئ القيس الضائعة.

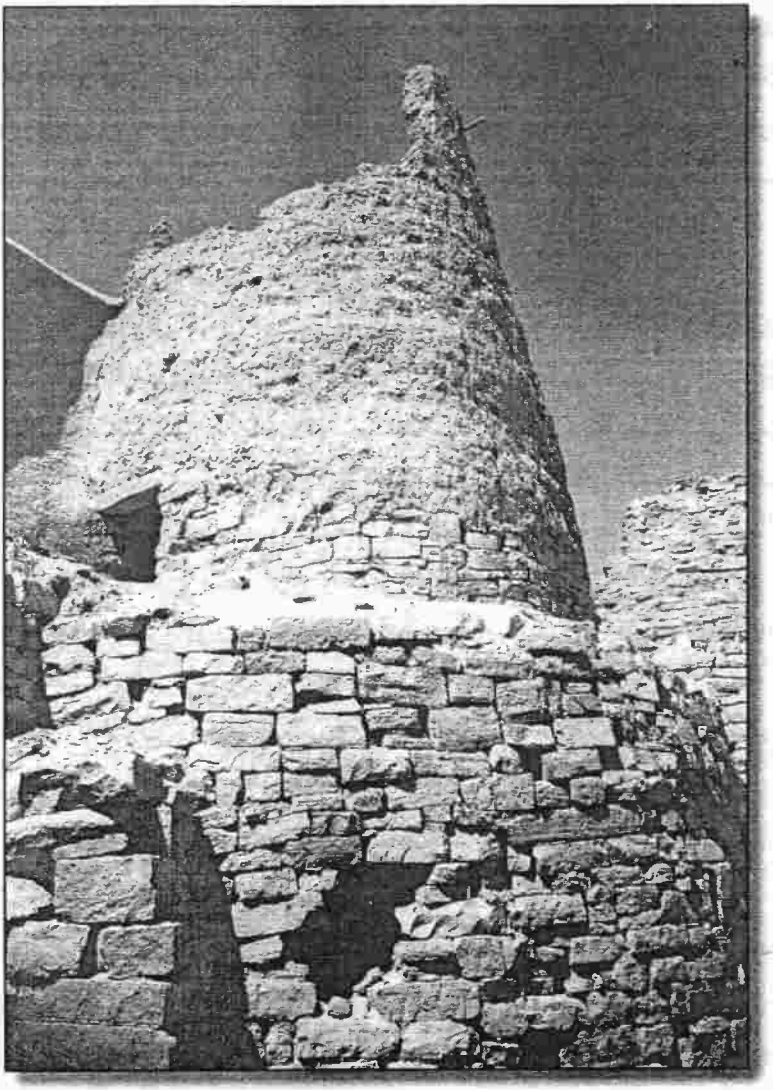

قلعة مارد من مقار حكم امرئ القيس.

بقايا قلعة مارد بمنطقة الجوف التى مكث فيها امرؤ القيس بعض الوقت.

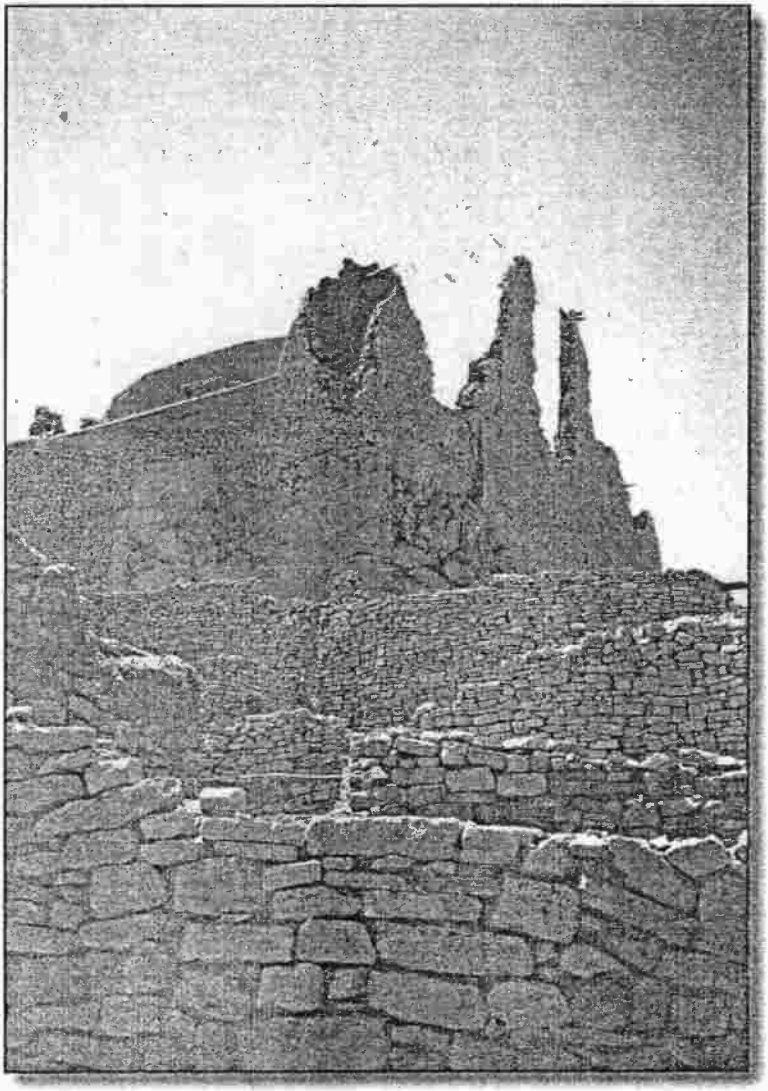

منظر عام لقلعة مارد.

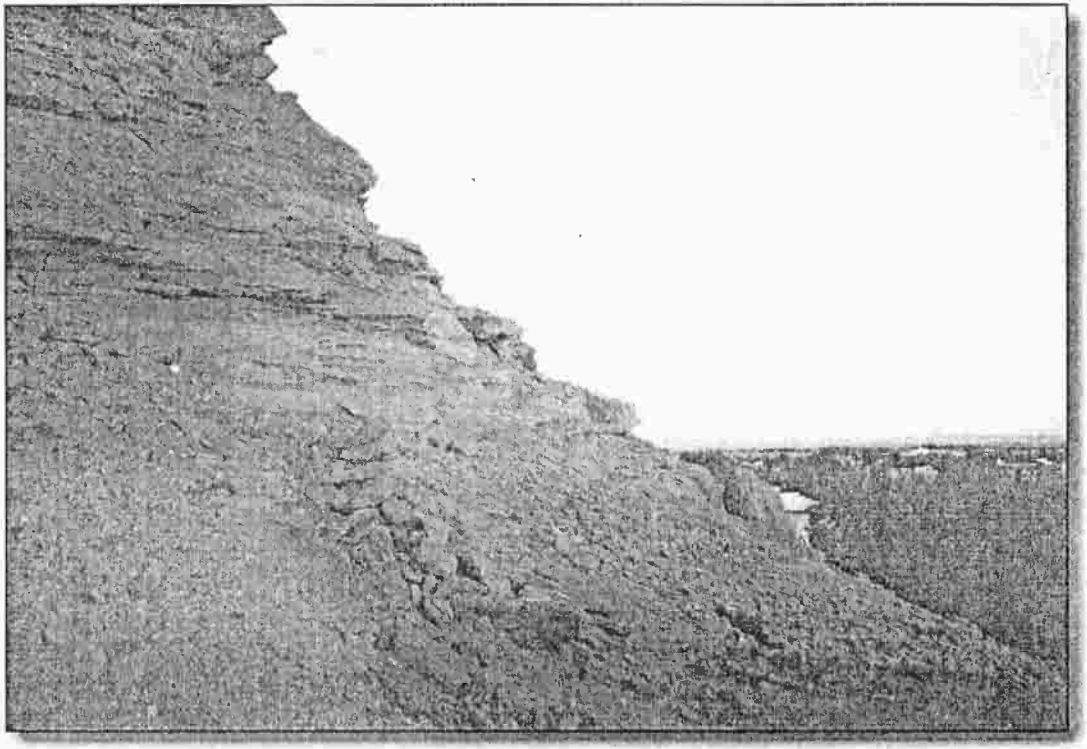

دومة الجندل حيث لايزال النخيل متوفرًا بكثرة.